الدرس الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فهذا كتاب تجريد التوحيد المفيد، ومؤلفه هو: الإمام العلامة المؤرخ المحدث الفقيه أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم المقريزي، بعلبكي الأصل، مصري المولد والوفاة، وهو عالم موسوعي مشارك في علوم كثيرة، ومن مؤلفاته النافعة هذا الكتاب، تجريد التوحيد المفيد، والذي كان محل قبول من العلماء. لما تميز به من الصفاء وأنه أول كتاب أفرد في توحيد الألوهية كما ذكر ذلك الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله.

وقد اعتنى العلماء بهذا الكتاب، وأثنوا عليه، فممن أثنى عليه الشيخ صديق حسن خان، ونسخه الشيخ سعد بن حمد بن عتيق، ودرَّسه الإمام الألباني رحمه الله في بلاد الشام، واتسم بالعديد من المزايا

١. أول مصنف أفرد في توحيد العبادة.
٢. الصحة، فالمسائل التي ذكرها فيه مسائل صحيحة وليس فيها ما يستدرك.
٣. العناية بإيراد الأدلة، فليس مجرد متن مقتضب، بل يذكر المسائل ويتبعها بالأدلة.
٤. كثرة التقسيمات وحسنها.

وإن كان من شيء يستدرك ويلاحظ على هذا الكتاب فهو: عدم العزو للنقولات، وهذه الصفة كانت موجودة عند المتقدمين، فربما نقل أحدهم الأسطر الكثيرة وربما الصفحات ولم يعزُها ولا يرون في ذلك بأسا.

حتى أن البيهقي -رحمه الله- ربما نقل نقلا طويلًا عن الخطابي ولم ينسبه إليه! وكأنهم يرون أن العلم مشاع بين أهله، لا يختص به أحد. وثمَّ سبب آخر يتعلق بالمقريزي -رحمه الله- وهو أنه عاش في الفترة التي تلت عهد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، كان ميلاد المقريزي سنة سبعمائة وست وسبعين للهجرة، ووفاته سنة ثمانمائة وخمسة وأربعين، وكانت فترة قوي فيها أهل البدع وأهل الكلام، وقد نقل

عن شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم –رحمهما الله– نقولًا كثيره وكانت طريقة شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– في إحياء مذهب السلف ومحاربة أهل البدع من أصحاب الرياسات السياسية والدينية في ذلك الوقت، فلعله لم يعزه لهذا الاعتبار.

ومما يؤخذ على الكتاب من الناحية الفنية أحيانا بعد الجواب عن الشبهة، فربما ذكر شبهة معينة ولم يذكر جوابها إلا بعد فاصل طويل مما قد يحدث عند القارئ نوعا من الانتقال أو الفصل الذهني. والكتاب بجملته كتاب نافع مفيد مبارك، لم يزل أهل العلم يعتنون به لما فيه من صفاء التوحيد.

(المتن)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

قال الإمام العلامة أحمد بن علي المقريزي المصري الشافعي رحمه الله تعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، وصلى الله على نبينا محمد خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين..

وبعد، فهذا كتاب جم الفوائد بديع الفرائد، ينتفع به من أراد الله والدار الآخرة.. سميته (تجريد التوحيد المفيد)، والله أسأل العون على العمل بمنه.

(الشرح)

هذه خطبة الكتاب، ولا نستطرد في شرح مفردات هذه الخطبة، فإنها تتكرر في عامة المتون، إلا أننا ننبه على أن المشروع الجمع بين الصلاة والسلام على النبي ﷺ امتثالا لأمر الله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب:٥٦].

وقد أشار المصنف في مستهلها إلى شرط الانتفاع به، فقال: ينتفع به من أراد الله والدار الآخرة، وهذا ملحظ مهم، فإن حصول النفع لا بد فيه من نية صالحة، وقد قال الله ﷻ: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب:٢١].

فربما قرأ طالب العلم الأشياء الكثيرة لكن لم ينتفع، لأنه لم يستصحب نية إرادة الله والدار الآخرة، وثناء المصنف رحمه الله على كتابه بقوله: كتاب جم الفوائد بديع الفرائد، لم يرد به المباهاة والفخر، وإنما أراد الحث على الانتفاع به وترغيب القارئ والسامع في ذلك.

واسمه (تجريد التوحيد المفيد)، التجريد في اللغة: هو التعرية، التعرية من الثياب أو غيرها، ويقال أيضًا عن التجريد: أنه يدل على التشذيب، فتجريد النخل تجريدها من السعف ونحو ذلك، فمراد المصنف بتسمية الكتاب (بتجريد التوحيد)، أي تجريد التوحيد من شوائب الشرك في الأفعال والأقوال والنيات كما صرح بذلك في كلامه الآتي.

المطلوب هو تجريد التوحيد من الشوائب لكي يحصل الأثر المفيد، من تعلق القلب بالله ﷻ. والاستعانة بالله تعالى مطلوبة في جميع الأمور، ولهذا يقول العبد في كل ركعة: {إياك نعبد وإياك نستعين}، وكما قيل:

إذا لم يكن عون من الله ... فأول ما يجني عليه اجتهاده

وهو معنى لا بد أن يستحضره المتعبد وطالب العلم وكل مسلم في كل شأن من شؤون الحياة كما قال النبي ﷺ: « اسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ»[١].

(المتن)

اعلم أن الله سبحانه هو رب كل شيء ومالكه وإلهُهُ:

[١] أخرجه مسلم- (٢٦٦٤).

فالرب مصدر ربَّ يَرُبُّ ربّاً فهو رابٌّ: فمعنى قوله تعالى: {رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة:٢]، رابِّ العالمين، فإن الرب سبحانه وتعالى هو الخالق الموجد لعباده، القائم بتربيتهم وإصلاحهم من خَلقٍ ورزقٍ وعافية وإصلاح دين ودنيا.

(الشرح)

ابتدأ المصنف رحمه الله ببيان الربوبية، وأن مدارها على اعتقاد الله ربا، ومعنى كونه سبحانه رب العالمين أي رابهم، أي مربيهم بنعمه، واعلموا أن مدار الربوبية على ثلاثة أوصاف، الخلق، والملك، والتدبير، فالربوبية تعني أن الله تعالى خلق العالمين وملكهم ودبر أمورهم، فهي ما يتعلق بإصلاح الخلق في معاشهم من جميع الأمور.

والربوبية نوعان، ربوبية عامة، وهي التي تكون لجميع العالمين. جمع عالم، وهو كل ما سوى الله ﷻ فهو عالم من الإنس والجن والطير والبهائم والملائكة، فكل ما سوى الله فهو عالم، والله تعالى ربهم جميعا.

وتوحيد الربوبية هو أن يوحد الله بذلك، فيعتقد الإنسان ألا خالق إلا الله، وألا مالك إلا الله، وألا مدبر إلا الله.

(المتن)

والإلهية كون العباد يتخذونه سبحانه محبوباً مألوهاً ويفردونه بالحب والخوف والرجاء والإخبات والتوبة والنذر والطاعة والطلب والتوكل، ونحو هذه الأشياء.

فإن التوحيد حقيقته أن ترى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع الالتفات عن الأسباب والوسائط، فلا ترى الخير والشر إلا منه تعالى.

وهذا المقام يثمر التوكل وترك شكاية الخلقِ وترك لومهم والرضا عن الله تعالى والتسليم لحكمه.

(الشرح)

هذه القطعة من كلام المصنف في بيان حقيقة الإلهية، الإلهية مأخوذة من التأله، والمقصود بالتأله: الوله، الذي هو التعلق والانجذاب، ولذلك سمي الله إلهًا؛ لأن القلوب تأله محبة وتعظيما، أي تنجذب إليه وتتعلق به محبة وتعظيما، ولذلك قال المصنف–رحمه الله–: كون العباد يتخذونه سبحانه محبوباً مألوهاً ويفردونه بكذا وكذا، ذكر أعمال القلوب التي يحصل بها التعلق بالله ﷻ، وأعظمها المحبة، ومنها الخوف والرجاء والتوكل والإخبات، وسائر الأعمال القلبية التي يحصل بها تحقيق العبادة لله تعالى.فحقيقة التوحيد ألا يرى الأمور إلا من الله ﷻ، وليس ذلك إلغاء للأسباب والوسائط أو عدم اعتبار لها كما يقوله الجبرية وغلاة الصوفية، وإنما رؤية تدبير الله ﷻ من وراء هذه الأسباب والوسائط، بحيث يعلم أن الخير والشر منه ﷻ، وأن كل شيء بقدر، وهذا كما قال يثمر التوكل. وحقيقة التوكل اعتماد القلب على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار مع فعل الأسباب الموصلة لذلك.وإذا وقع ذلك للعبد فإنه يتخلص من شكاية الخلق ولومهم، لماذا نرى كثيرا من الناس يلقي باللائمة على غيره ويقول لمن حوله لَمَ فعلت كذا أو لَمَ لم تفعل كذا؟ لا ريب أن هذا نقص في التوكل، وقد ذكر أنس بن مالك ﷺ أنه خدم النبي ﷺ عشر سنين قال: «فَخَدَمْتُهُ فِي الحَضَرِ وَالسَّفَرِ فَوَاللَّهِ مَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ لِمَ صَنَعْتَ هَذَا هَكَذَا، وَلاَ لِشَيْءٍ لَمْ أَصْنَعْهُ لِمَ لَمْ تَصْنَعْ هَذَا هَكَذَا»[1]، وقال: (خدَمْتُ النَّبِيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عَشرَ سِنِينَ، فما أَمَرنِي بأمرٍ فتوانَيتُ عنه أو ضَيَّعْتُه فلامَنِي، فإنْ لامَنِي أحَدٌ مِن أهْلِ بَيتِه إلَّا قال: دَعُوه؛ فلو قُدِّرَ –أو قال: لو قُضِيَ– أنْ يَكونَ كانَ)[٢] ، فهذا يدل على كمال التوكل على الله ﷻ. والتوحيد الثلاثة، فإن التوحيد ثلاثة أنواع، توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات، فتوحيد الربوبية هو توحيده سبحانه بأفعاله بالخلق والملك والتدبير وما اتصل بذلك من أفعاله سبحانه.

وأما توحيد العبادة الذي هو توحيد الألوهية فهو توحيده سبحانه بأفعال عباده، يعني بالعبادات الصادرة من عباده، فلا يصرف شيئا من أنواع العبادة لغير الله ﷻ سواء كانت العبادة قولية أو بدنية

[1] أخرجه البخاري- (٦٩١١)، ومسلم- (٢٣٠٩)، متفق عليه.

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٠٣٨)، ومسلم رقم (٢٣٠٩).

أو مالية فإنه يفرد الله تعالى بها، {قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام:١٦٢]، وهذا معنى قول لا إله إلا الله، أي لا معبود بحق إلا الله.

وأما النوع الثالث وهو توحيد الأسماء والصفات فهو إثبات الأسماء والصفات لله ﷻ على وجه لا يماثله فيه أحد من المخلوقين، فيكون بذلك موحدا لله تعالى فيما أثبت لنفسه من الأسماء والصفات.

هذا التقسيم الثلاثي يقسمه بعض العلماء أو يجمعونه في نوعين، فيقولون: التوحيد نوعان، توحيد المعرفة والإثبات وتوحيد القصد والطلب، وليس بين التقسيمين تعارض، فكلا منهما تقسيم فني مبني على التتبع والاستقراء، ومآل التقسيم الثلاثي إلى الدخول في التقسيم الثنائي؛ لأن توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات يرجعان إلى توحيد المعرفة والإثبات الذي هو التوحيد العلمي، الخبري، والنظري.

وأما توحيد القصد والطلب فهو ذاته توحيد العبادة الذي هو التوحيد العملي، ويدل على النوع الأول سورة الإخلاص، {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} [الإخلاص:١-٤]، ويدل على التوحيد الثاني سورة الكافرون، {قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} [الكافرون:١-٦].

(المتن)

وإذا عرفت ذلك فاعلم أن الربوبية منه تعالى لعباده والتَّأَلُّهَ من عباده له سبحانه، كما أن الرحمة هي الوصلة بينهم وبينه عز وجل.

واعلم أن أنفس الأعمال وأجلها قدراً توحيد الله تعالى.

(الشرح)

إن أنفس الأعمال وأجلها قدرا توحيد الله تعالى، فمن أتى بالتوحيد فقد اقتحم العقبة، وجاوز القنطرة وسلمت له الدنيا والآخرة، ومن حقق التوحيد دخل الجنة بلا حساب، كما جاء ذلك في الأحاديث، وكما أمر الله تعالى به نبيه ﷺ، {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِين * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِين} [الزمر:٦٥-٦٦]، {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُون} [الأنبياء:٢٥]، فالتوحيد هو أجل الأعمال وأنفسها قدرا.

وفي حديث البطاقة قال عليه الصلاة والسلام: (" يُصَاحُ بِرَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْخَلَائِقِ، فَيُنْشَرُ لَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: هَلْ تُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ فَيَقُولُ: لَا، يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا، ثُمَّ يَقُولُ: أَلَكَ عُذْرٌ، أَلَكَ حَسَنَةٌ؟ فَيُهَابُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لَا، فَيَقُولُ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَاتٍ، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، قَالَ: فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ، مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟ فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ، فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى: " الْبِطَاقَةُ: الرُّقْعَةُ، وَأَهْلُ مِصْرَ يَقُولُونَ لِلرُّقْعَةِ: بِطَاقَةٌ ")[1].

فحسنة التوحيد لا يقاربها ولا يدانيها حسنة، ولهذا كانت عتقا من النار، فمهما أذنب الإنسان وغشى من الكبائر وقدر أن يعذب في النار فإن مآله إلى الجنة بسبب حسنة التوحيد، فكيف إذا عصم من الكبائر والذنوب؟

وكذلك أخبر النبي ﷺ فيما يحدث به عن ربه (يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً)[2].

---

[1] أخرجه ابن ماجه- (٤٣٠٠)، والحاكم في المستدرك- (٩)، وقال: هذا على شرط مسلم، وصححه الألباني (في صحيح الجامع الصغير وزياداته- ٨٠٩٥).

[2] أخرجه الترمذي- (٣٥٤٠)، وقال: هذا حديث حسن صحيح.